أثارة من التاريخ

بغداد في القرن السادس

مجلس شيخا الشافعية والحنابلة رضي الدين القزويني وابن الجوزي

قال الكاتب الأديب أبو الحسين محمد بن أحمد بن جبير الكناني الاندلسي البلنسي في رحلته الشهيرة في الفصل الذي أنشأه للكلام عن بغداد :

« هذه المدينة العتيقة وان لم تزل حضرة الخلافة العباسية ، ومثابة الدعوة الاسلامية القرشية الهاشمية ، قد ذهب أكثر رسومها ، ولم يبق منها الا شهير اسمها ، وهي بالاضافة الى ما كانت عليه قبل إنحاء الحوادث عليها ، والتفات أعين النوائب اليها ، كالظل الدارس ، والأثر الطامس ، أو كمثال الخيال الشاخص ، فلا حسن فيها يستوقف البصر ، ويستدعي من المستوفز الغفلة والنظر ، الا دجلتها التي هي بين شرقيها وغربيها منها كالمرآة المجلوة بين صفحتين ، أو العقد المنتظم بين لبتين ، فهي تردها ولا تغلها ، وتطلع منها في مرآة صقيلة لا صدأ ، والحسن الحريمي بين هوائها وماءها ينشأ ، هي من ذلك على شهرة في البلاد معروفة موصوفة ، فمن شوى منها الا أن يعصم الله مخوفة ،

« وأما أهلها فلا تكاد تلقى منهم الا من يتصنع بالتواضع رياء ، ويذهب بنفسه عجبا وكبرياء ، يزدرون الغرباء ، ويظلمون لمن دونهم الانفة والاباء ، ويستصغرون عن سواهم الأحاديث والانباء ، قد قصر كل منهم في معتقده ومعاده ، ان الوجود كله يصغر بالاضافة لبلده ، فهم لا يستكرمون في معمور البسيطة مثوى غير مثواهم ، كأنهم لا يعتقدون أن لله بلادا أو عبادا سواهم ، يسحبون أذيالهم أشرا وبطرا ، ولا يفيرون في ذات الله منكرا ، يظنون أن أسنى الفخار ، في سحب الازار ، ولا يعلمون أن فضله يقتضي الحديث المأثور في النار ، يتباهون بينهم بالذهب فرضا ، وما منهم من يحسن لله قرضا ، فلا تقفه فيها الا من دينار تقرضه ، وعلى يدي غمر للميزان تمرضه ، لا تكاد تظفر من خواص أهلها بالنوع الخفيف ، ولا تقع من أهل موازينها ومكاييلها الا على من ثبت له

الويل في سورة التطفيف ، لا يبالون في ذلك بعيب ، كأنهم من بقايا مدين قوم النبي شعيب ، فالغريب فيهم معدوم الارفاق ، متضاعف الإنفاق ، لا يجد من أهلها الا من يعامله بنفاق ، أو يهش اليه هشاشة انتفاع واسترفاق ، كأنهم من التزام هذه الخلة القبيحة على شرط اصطلاح بينهم واتفاق ، فسوء معاشرة أبنائها يغلب على طبع هوائها وماءها ، ويعلل حسن المسموع من أحاديثها وأنبائها

« أستغفر الله الا تقاعد المحدثين ، ووعاظهم المذكرين ، لا جرم ان لهم في طريقة الوعظ والتذكير ، ومداومة التنبيه والتبصير ، والمثابرة على الانذار المخوف والتحذير ، مقامات تستنزل لهم من رحمة الله تعالى ما يغط كثيرا من أوزارهم ، ويسحب ذيل العفو على سوء آثارهم ، ويمنع القارعة العمياء أن تحل بديارهم ، لكنهم معهم يضربون في حديد بارد ، ويرومون تغيير الجلامد ، فلا يكاد يخلو يوم من أيام جمعاتهم من واعظ يتكلم فيه فالموفق منهم لا يزال في مجلس ذكر أيامه كلها لهم في ذلك طريقة مباركة ملتزمة

« فأول من شاهدنا مجلسه منهم الشيخ الامام رضي الدين القزويني رئيس الشافعية ، وفقيه المدرسة النظامية ، والمشار اليه بالتقديم في العلوم الأصولية ، حضرنا مجلسه بالمدرسة المذكورة إثر صلاة العصر من يوم الجمعة الخامس لصفر المذكور فصعد المنبر وأخذ القراء أمامه بالقراءة على كراسي موضوعة فتوقفوا وشوقوا وأتوا بتلاحين معجبة ، ونغمات معربة مطربة ، ثم اندفع الشيخ الامام المذكور فخطب خطبة سكون ووقار وتصرف في أفانين من العلوم من تفسير كتاب الله عزوجل وايراد حديث رسوله صلى الله عليه وسلم والتكلم على معانيه ، ثم رشقته شآبيب المسائل من كل جانب فأجاب وما قصر ، وتقدم وما تأخر ، ودفعت اليه عدة رقاع فيها (١) فجمعها جملة في يده وجعل يجاوب على كل واحدة منها وينبذ بها الى أن فرغ منها وحان المساء فنزل وافترق الجمع . فكان مجلسه مجلس علم ووعظ وقور هيبنا لينا ظهرت فيها البركة والسكينة ، ولم تقصر عن

---

١) كذا في الأصل وفي نسخة الاخرى « منها » ولعل الاصل « فيها مسائل — أو — أسئلة » فسقط لفظ مسائل من الناسخ

إرسال عبرتها فيه النفس المستكينة ، ولا سيما آخر مجلسه فانه سرت حميا وعظه الى النفوس حتى أطارتها خشوعا ، وفجرتها دموعا ، وبادر التائبون اليه سقوطا على يده ووقوعا ، فكم من ناصية جز ، (١) وكم مفصل من مفاصل التائبين طبق بالموعظة وحز ، فبمثل مقام هذا الشيخ يبارك رحم العصاة ، وتنعقد الجناة ، وتستدام العصمة والنجاة ، والله تعالى يجازي كل ذي مقام عن مقامه ، ويتقبل ببركة العلماء الأولياء عباده العاصين من سخطه وانتقامه ، برحمته وكرمه انه المنعم الكريم لا رب سواه ، ولا معبود إلا إياه ،

« وشهدنا له مجلسا ثانيا إثر صلاة العصر من يوم الجمعة الثاني عشر من الشهر المذكور وحضر مجلسه ذلك اليوم سيد العلماء الخراسانية ، ورئيس الأئمة الشافعية ، ودخل المدرسة النظامية بهز عظيم وتطريف آماق (٢) تشوقت له النفوس فأخذ الامام المتقدم الذكر في وعظه مسرورا بحضوره ومتجملا به فأتى بأفانين من العلوم على حسب مجلسه المتقدم الذكر . ورئيس العلماء المذكور هو صدر الدين الخجندي المتقدم الذكر في هذا التقييد (٣) المشتهر المآثر والمكارم ، المقدم بين الأكابر والأعاظم ،

« ثم شاهدنا صبيحة يوم السبت بعده مجلس الشيخ الفقيه الامام الاوحد جمال الدين أبي الفضائل بن علي الجوزي بإزاء داره على الشط بالجانب الشرقي وفي آخره على اتصال من قصور الخليفة ويقربه من باب البصلية آخر أبواب الجانب الشرقي وهو يجلس به كل يوم سبت فشاهدنا مجلس رجل ليس من عمرو ولا زيد ، وفي جوف الفراء كل الصيد ، آية الزمان ، وقرة عين الايمان ، رئيس الحنبلية ، والمخصوص في العلوم بالرتب العلية ، إمام الجماعة ، وفارس حلبة هذه الصناعة ، والمشهور له بالسبق الكريم في البلاغة والبراعة ، مالك أزمة الكلام

---

(١) كان التائب في ذلك العصر يجز ناصيته . وأما جز المفصل الذي بعده فهو مجاز (٢) العبارة غير مفهومة ولعل فيها تحريفا أو تصحيفا ولا يبعد أن يكون أصل « تطريف » تطريق بالقاف وأن يكون استعملها بمعنى الاطراق . والخجندي بضم الجيم وفتح الخاء (٣) يريد بهذا التقييد كتاب الرحلة

في النظم والنثر، والفائض في بحر فلك على فائض الدر، فأما نظمه فرضي الطباع، مهياري الانطباع، واما نثره فيصدع بسحر البيان، ويعطل المثل بقس وسحبان،

«ومن أكبر آياته، وأكبر معجزاته، أنه يصعد المنبر ويبتدئ القراءة بالقراءة وعددهم نيف على العشرين قارئا فينتزع الاثنان أو الثلاثة آية من القرآن يتلونها على نسق بتطريب وتشويق فاذا فرغوا تلت طائفة أخرى على عددهم آية ثانية ولا يزالون يتناوبون آيات من سور مختلفات الى أن يتكاملوا قراءة وقد أتوا بآيات مشتبهات لا يكاد المتقد الخاطر يحصيها عددا أو يسميه نسقا. فاذا فرغوا أخذ هذا الامام الغريب الشأن في ايراد خطبته عجلا مبتدرا، وأفرغ في أصداف الاسماع من ألفاظه درا، وانتظم أوائل الآيات المقروآت في أثناء خطبته فقرا، وأتى بها على نسق القراءة لا مقدما ولا مؤخرا، ثم أكمل الخطبة على قافية آخر آية منها. فلو أن أبدع من في مجلسه تكلف تسمية ما قرأ القراء به آية آية على الترتيب لعجز عن ذلك فكيف بمن يتنظمها مرتجلا، ويورد الخطبة القراء بها عجلا، (أفسحر هذا أم أنتم لا تبصرون) ان هذا لهو الفضل المبين) فحدث ولا حرج عن البحر، وهيهات ليس المخبر عنه كالمبصر،

«ثم انه أتى بعد ان فرغ من خطبته برقائق من الوعظ وآيات بينات من الذكر طارت لها القلوب اشتياقا، وذابت بها الانفس احتراقا، الى أن علا النشيج وتردد بشهقاته النشيج، وأعلن التائبون بالصياح، وتساقطوا عليه تساقط الفراش على المصباح، كل يلقي ناصيته بيده فيجزها ويسمح على رأسه داعيا له. ومنهم من يغشى عليه، فيرفع في الاذرع اليه، فشهدنا هولا يملأ النفوس إنابة وندامة، ويذكرها هول يوم القيامة، فلو لم نركب ثبج البحر، ونقتحم مفازات القفر، الا لمشاهدة مجلس من مجالس هذا الرجل لكانت الصفقة الرابحة، والوجهة المفلحة الناجحة، والحمد لله على ان من بلقاء من تشهد الجمادات بفضله، ويضيق الوجود عن مثله،

«وفي أثناء مجلسه ذلك يندرون المسائل وتطير الى الرقاع فيجاوب أسرع من طرفة عين. وربما كان أكثر مجلسه الرائق من نتائج تلك المسائل والفضل بيد الله يؤتيه من يشاء لا إله سواه.

ثم شاهدنا مجلسا له ثانيا له بكرة يوم الخميس الحادي عشر لصفر بباب بدر في ساحة قصور الخليفة ومناظره مشرفة عليه وهذا الموضع المذكور هو من حرم الخليفة وخص بالوصول اليه والتكلم فيه ليسمعه من تلك المناظر الخليفة ووالدته ومن حضر من الحرم . ويفتح الباب للعامة فيدخلون الى ذلك الموضع وقد بسط بالحصر . وجلوسه بهذا الموضع كل (يوم) خميس . فبكرنا لمشاهدته بهذا المجلس المذكور وقصدنا الى أن وصل هذا الخبير المتكلم فصعد المنبر وأرخى طيلسانه عن رأسه تواضعا لحرمة المكان وقد نشر القراء امامه على كراسي موضوعة فابتدروا القراءة على الترتيب وشوقوا ماشاؤا ، وأطربوا ما أرادوا ، وبادرت العيون بارسال الدموع ، فلما فرغوا من القراءة وقد أحصينا لهم تسع آيات من سور مختلفات ، صدع بخطبته الزهراء الغراء وأتى بأوائل الآيات في أثنائها منتظمات ، ومشى الخطبة على فقرة آخر آية منها في الترتيب الى أن أكملها وكانت الآية (٤٠ : ٦١ الله الذي جعل لكم الليل لتسكنوا فيه والنهار مبصرا ان الله لذو فضل على الناس) فيا دي على هذا النمط وحسن أي تحسين ، فكان يومه أعجب من أمسه ، ثم أخذ في الثناء على الخليفة والدعاء له ولوالدته وكنى عنها بالستر الأشرف ، والجناب الأرأف ، ثم سلك سبيله في الوعظ كل ذلك بديهة لا رويّة . ويصل كلامه في ذلك بالآيات المقروءات على السمع مرة أخرى . فأرسلت وابلها العيون ، وأبدت النفوس سر شرفها المكنون ، وتطارح الناس عليه بذنوبهم مستغفرين ، وبالتوبة معلنين ، وطاشت الالباب والعقول ، وكثر الولهان والذهول ، وصارت النفوس لا تملك تحميلا ، ولا تجد معقولا ، ولا تجد للصبر سبيلا ،

ثم في أثناء مجلسه ينشد بأشعار من النسيب مبرحة التشويق ، بديعة الترقيق ، تشغل القلوب وجدا ، وبعود موضوعها النسيبي زهدا ، وكان آخر ما أنشده من ذلك وقد أخذ المجلس مأخذه من الاحترام ، وأصابت المقاتل سهام ذلك الكلام

أين فؤادي اذا به الوجد وأين قلبي فما صحا بعد
ياسعد ذني جوى بذكرهم بالله قل لي فديت ياسعد

ولم يزل يرددها والانفعال قد أثر فيه ، والمدامع تكاد تمنع خروج الكلام

من فيه ، الى أن خاف الاقدام ، فابتدر القيام ، ونزل عن المنبر دهشاً عجلان ، وقد أطار القلوب وجلا ، وترك الناس على أحر من الجمر ، يشيعونه بالمدامع الحر ، فمن معلن بالانتحاب ، ومن مختفر في التراب ، فيالله من مشهد ما اهول مرآه ، وما أسعد من رآه ، نفعنا الله ببركته ، وجعلنا ممن فاز بنصيب من رحمته ، عمه وفضله ، ثم ذكر انه حضر له مجلسا ثالثا وأثنى عليه وفضله على كل من رأى في الحجاز والعراق وفضل وعاظ الشرق على وعاظ الغرب أهل بلاده (الاندلس)

***

العبرة في هذه الآثارة التاريخية من وجوه

أحدها — أن بغداد لما ضعفت مدنيتها ، وتضاءلت العلوم والمعارف فيها ، أعقب ذلك أهلها فسادا في الاخلاق ، وشرها في الارتزاق ، وعجبا بما كان على عهد الآباء ، واحتقارا لغرباء ، وقد كانت في أيام حياتها العلمية تقدر كل أحد قدره حتى كان يعيشها الغريب فيكون رئيس العلماء فيها فيذعنون له و يعترفون بامامة وهذه سيرة الغزالي حجة الاسلام حجة على ذلك . فليعتبر بذلك دعاة العصبية الجاهلية بمصر ليعلموا ان هذه العصبية من علامات الموت لا من آيات الحياة ولو كان عند أسلافنا شيء من هذه العصبية لما أصابوا من العلم والمدنية شيئاً مما أصابوا

ثانيها — أن الزمن الذي زار فيه بغداد ابن جبير ووصفها فيه بالانحطاط والتأخر هو كانت حتى تمثل فيها بقول أبي تمام * لا أنت أنت ولا الديار ديار * هو الزمن الذي كان فيه من بقايا العلماء فيها مثل رضي الدين القزويني وابن الجوزي فمن لنا الآن بمثلهما وقد مر بك التنوية بشيء من فضلهما

ثالثها — أن أكابر العلماء وأئمتهم كانوا لا يزالون يعقدون مجلس الوعظ للعامة وقد صار كبار علمائنا في أكثر البلاد يستنكفون عن الوعظ و يعدونه مزريا بهم حتى عم الفساد وعز نظيره وقد بذل الاستاذ الامام رحمه الله تعالى جهده في إحياء هذه السنة الحسنة سنة الوعظ والتذكير بترغيب العلماء فيها بالقول وبما سعى من ترتيب المرتبات لها من الاوقاف ولكن لا تكاد تجد في العلماء من له قلب يميله الى العمل وانا لنعلم أنهم يشعرون من أنفسهم بالعجز عن الوعظ النافع ولو وجد الباعث

النفسي لأنقن ذلك كثيرون

رابعها — أن وعاظ ذلك العصر كانوا يعظون الناس بالكلام الفصيح المشتمل على الاشارات الى الآيات والأحاديث ووقائع التاريخ (وسننشر في المنار نموذجا من وعظ ابن الجوزي) وكان العوام يفهمون كلامهم ويتعظون به وقد سمعت خبر كثرة التائبين في مجالس الوعظ . أما الآن فقد جهلت الفتحتي انك لتجد أكثر المتعلمين لا يفهمون الكلام البليغ والاساليب العالية حق الفهم فابالك بالاميين . فرالمغي على تلك القلوب الرقيقة ، والفطر السليمة ، والسير القويمة ، على أن ضعف الفاعل ، قد صار أشد من ضعف القابل ، فالعوام لا يزالون يفهمون بالاجمال من الواعظ المحسن الذي يتحرى السهولة ويراعي درجة استعدادهم ما يتعظون به ويتذكرون ولكن لا تكاد تجد هذا الواعظ في الخاصة لا لسبب الا عدم اهتمامهم بأمر العامة وغيرتهم على الدين . وقد جربنا وعظ العامة وتذكيرها فرأينا من الاستعداد ما نجزم معه بأن إحياء سنة الوعظ تحيي الدنيا وتصلح الاخلاق في زمن قليل

خامسها — ان الخليفة ونساءه كانوا في ذلك العصر يحضون بسماع الوعظ الذي يلقى على العامة مع شدة ما أحدثوا من التحجب الذي كان من أسباب زوال سلطتهم واختلال أمر الامة بكثرة السلاطين المستبدين فأين ذلك من ملوكنا وأمرائنا اليوم وسلطان المغرب الاقصى يعتقد كما يعتقد الجمهور من خاصته انه اذا قرئ تفسير القرآن في بلادهم يموت السلطان !! أفيرجى بقاء مملكة يعتقد خواصها هذه الخرافة وماهي الا واحدة من ألوف من خرافاتهم ، وأما الامراء المتغرنجون ، فلهم أعمال من دون ذلك هم لها عاملون ، وبها مشغولون ، فماذا تقول في نساء الملوك والأمراء وعدم سماعهم شيئا من أمر الدين

وقد يقول قارئ تلك الأثارة ان ابن جبير ذكر من فساد أخلاق أهل بغداد ماذكر ثم ماعنى ان ذكر ان الذين يتوبون منهم في كل مجلس وعظ كثيرون فقد ناقض نفسه . ويجاب عن ذلك بأن الذين كانوا يسمعون الوعظ لم يكونوا كلهم من أهل بغداد نفسها بل كان فيهم كثيرون من الضواحي والقرى القريبة

بل كانت الرواحل تشد الى أمثال هؤلاء الوعاظ من الاماكن البعيدة كما يعلم من التاريخ الى أن كثرة التائبين والصالحين في بلد عظيم كبغداد لا ينافي كون المعصاة فيها أكثر أو كون المطامي فاشية فيها

فتاوى المنار

قصدنا من هذا الباب لاجابة أسئلة المشتركين خاصة ، اذ لا يسع الناس عامة ، ونشترط على السائل ان يبين اسمه ولقبه وبلده وعمله ووظيفته (وله بعد ذلك ان يرمز الى اسمه بالحروف ان شاء) وانا نذكر الاسئلة بالتدريج غالبا وربما قدمنا متأخرا لسبب كحاجة الناس الى بيان موضوعه وربما أجبنا غير مشترك لمثل هذا . ولمن يمضي على سؤاله شهران او ثلاثة ان يذكر به مرة واحدة فان لم نذكره كان لنا عذر صحيح لاغفاله

﴿ س ٤٤ عن هلال الصوم والفطر من سواكن (السودان) ﴾

بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله وحده والصلاة والسلام على من لا نبي بعده

حضرة الاستاذ الفاضل رب العلوم ومعدن الفهوم الحسيب النسيب السيد محمد رشيد رضا صاحب المنار الغراء حفظه الله وتولاه

سلام عليكم ورحمة الله وبركاته أما بعد فقد اشكلت علينا مسئلة منذ أعوام وكثر الهرج لاجلها فاحببت ان أقدمها لجنابكم سائلا حلها واجابتي عنها جوابا شافيا وافيا على صفحات المنار ليهتدي كل من استهدى به . وذلك عند حلول رمضان واثبات الصوم أو الفطر حتى افترق أهل البلدة ثلاث فرق واليك نبأهم بالتفصيل

(الفرقة الاولى) تحتج بظهور هلال رمضان أو الفطر عيانا في قطرها وثبوته بالتواتر كما هو مقرر بالكتب الفقهية فاذا ثبت هلاله صامت وكذا افطرت واذا غم أكملت عدة شعبان ثلاثين يوما وهؤلاء هم فقهاء البلدة ومشايخهم

(الفرقة الثانية) تعتمد في صومها وافطارها على قنابل الحكومة المطلقة ابانا تحلول رمضان أو الفطر محتجة بأن هذه القنابل لا تطلق الا باذن شيخ الاسلام